ارتفاع الصليب

مسير منسوب الى القديس كيرلس اسقف اورشليم
٣١٣-٣٨٧م

نشره لاول مرّة ، وعلّق عليه
المطران بولس قرألي ، مدير المجلة البطريركية

٣

البحث الاول

في نسخه واهميته (تابع)

٢ً اهمية الميمر

لعظات وتآليف القديس كيرلس الاورشليمي أهمية خاصة . فنها نعرف الدرجة التي أدركتها ، في ذاك العهد ، الحياة المسيحية والعادات والرتب الكنسية ، والجهود المبذولة لفرز الزؤان من الحنطة في الآرا. الحديثة الحائمة حول كل ناحية من نواحي الديانة . لان كثيرًا من هذه الآرا. لم يكن بعد قد تحدّد بصفة راهنة واضحة ، ولان القديس كيرلس قد سبق طغمة ملافنة البيعة الكبار ، الذين برزوا في اواخر القرن الرابع واوائل الخامس . فكان اول من تصدّى لدحض هذه البدع وبسط وجهة نظر الكنيسة الارثوذكسية فيها ، وشرح بقية العقائد والاسرار النصرانية بصفة وافية منطقية[1] .

فان صحت نسبة هذا الميمر اليه ، اصبح وثيقة غالية الثمن عالية القيمة من الوجهتين الدينية والتاريخية ، وحقّ له ان يُضمّ الى مجموعة تآليف آباء الكنيسة الرسمية ، وان تُدرج معلوماته في تاريخها كمرجع اصيل لتقاليدها الدينية والتاريخية في القرون الاربعة الاولى ، وخاصة للحوادث التي سبقت ولحقت اكتشاف قبر الفادي وصليبه .

---

(١) راجع معجم اللاهوت لفاكان مج ٣ ، ع ٢٥٢٨ و٢٥٢٩ و٢٥٧٥

كان هذا الميمر حتى الساعة مجهولاً ، وما زال اصله اليوناني وترجمته السريانيّة مفقودَين . وصل الينا باللغة العربية المتنصرة وبعبارة سقيمة مضطربة . بيد ان هذا المظهر الرثّ ، ان افقده كثيرًا من رونقه وقليلًا من معانيه ، لا يفقده قيمته . فالعبارة ثوب شفاف لُفّ به ، لا يُحرم العين النيّرة الحادّة رؤية جماله ، كالوشاح اذا اكفهرت ألوانه واهترت خيطانه ، لا يُخفي رشاقة الجسم المرتدي به وتناسب اعضائه . ناهيك بما خلص من هذه الاعضاء من تلابيب الخلقان ، فانها تظهر على اصلها وطبيعتها بضّة مفتولة . فمع مرور القرون الطويلة على الميمر وذهاب طلاوة اللغة الاصلية عنه ودقة تعابيرها ، ما زلنا نسمع منه نبرة الفصاحة والحماسة خافتة ، انما عذبة جذّابة ، تلتقطها الآذان المتمرنة بارتياح ، وتستوعبها القلوب بسرور واعجاب ، وتعرف فيها صوت ذاك الراعي العالم والخطيب المفوّه ، صاحب التعاليم السامية والتفاسير الخالدة التي كان يلقيها فوق ضريح القادي على الجماهير الوافدة من انحاء الامبراطورية الرومانية للاحتفاء بتكريم الصليب المنتصر على الوثنية والرذيلة .

هذه الحفلات العظيمة والذكريات المؤثرة يستعيدها لنا الميمر ، ويطلعنا على التقاليد الشائعة في ذاك العصر حول فوز رسالة الاله المتجسد ، من عهد ارتفاعه على صليب الجلجلة مهاناً معذّباً ، الى عهد ارتفاعه سيدًا مطلقاً على ممالك الارض .

يصف لنا الخطيب القديس الآيات الباهرة التي ظهرت على قبر المسيح بعد قيامته ، خاصة شفاء اكلاوبا المقعد واقامة ابنه اهروقوس من الموت . وكيف اخفى نيقوديموس ويوسف الرامي الصليبان في القبر خوفاً من ان يحرقها اليهود ، وكيف اقدم هؤلاء على ردم القبر بزبالاتهم ، فقاصمهم الرب بخراب مدينتهم اورشليم وهيكلها واهلاك قسم كبير من شعبهم وتشتيت البقية واذلالها . وانتقم ايضاً من الملوك اعداء صليبه : ديوقلتيانوس ومكسيميانوس وخاصة يوليانوس الجاحد . بينما قد عزّز اصدقاءه : عطف قسطنطين الملك على المسيحيين فاظهر له صليبه لامعاً في الجوّ وخوّله به النصر والسلطة المطلقة في الامبراطورية الرومانية . فقصد مع والدته الى اورشليم للبحث عن عود هذه العلامة الظافرة ، وحقّق بنفسه عن مكانه مع علماء اليهود السبعة ، الذين يذكر الميمر اسماءهم .

واذ علم من احدهم انه مطمور في الجلجلة ، آمرهم برفع الردم عنه ، وعاد الى رومية تاركاً والدته وغلمانه واسقف اورشليم للاشراف على اعمال الحفر . حتى اذا ظهرت الصلبان الثلاثة داخل مغارة القبر ، وعُرف الصليب المقدس من الكتابة الباقية عليه ، هرول الملك الى اورشليم وسجد له وقرر بناء كنيسة لائقة به ، وعيّن لتدشين كنيسته عيداً رسمياً عظيماً في كل الامبراطورية .

وكان المؤمنون يتقاطرون الى اورشليم في هذا العيد لحضور حفلة ارتفاع الصليب والتبرّك من ذخيرته . منهم حجّاج خرجوا من يافا فرافقهم اسحق السامري باسرته وحاشيته وآنيته للتطهر في عين اورشليم . وفي اول مرحلة قطعوها ، وجدوا عند حقل يندوم ماء الجبّ مرًّا . فشتت بهم السامري لتجشمهم عناء السفر وتعرضهم للموت عطشاً في سبيل السجود لخشبة . وكان بين الحجاج قديس يدعى الانبا باخوس ، هذا لما سمع كلام السامري وتجنه وانهمه ما يجهله عن الصليب . ثم اخذ عودين وربطهما بشكل صليب ورماه في البئر ، فلمع كالمصباح واصبح الماء حلواً لذيذاً . وبنى سكان الجوار كنيسة للصليب على ذلك الجبّ وكرسها القديس كيرلس بنفسه . اما اسحق فتأثر لرؤية الاعجوبة ولحق المؤمنين حتى كنيسة القيامة حيث سمع عظة القديس كيرلس وآمن واعتمد منه مع جماعته . فكانت هدايته اعجوبة رابعة اجترحها الصليب .

هذه المعلومات وغيرها يرويها القديس كيرلس كشاهد عيان او معاصر . ناهيك عن تقاليد ثمينة قديمة عرفناها من ميمره عن معاصري السيد المسيح كنيقوديموس وابنه القديس اسطفان ، اول شهيد في النصرانية ، ويوسف الرامي ، وبرنابا ، وارملة نائين ، وحنه ابنة يائيروس ، واكلاوبا ، واهروقوس ولده ، ومريم المجدلية ، واليعازار ، ووجوه قرابة هؤلاء مع مريم العذراء . هذه الفوائد ان لم تكن كلها حقائق تاريخية ، فهي على الاقل تقاليد جليلة اوصلها الينا احد علماء الكنيسة الاقدمين واساقفتها ، منها ما كنا نجهله تماماً ، ومنها ما كنا نعرفه على غير حقيقته .

ولا ننسَ ان رواية القديس كيرلس عن رؤيا قسطنطين وظهور القبر

وخشبة الصليب بعناية هذا الملك وحضور والدته هيلانة توفق بين روايات المؤرخين المتناقضة الغير المعقولة ، وتتحاشى اغلب ما يقوم في سبيل تصديقهم من الصعوبات والمغالاة . ولعلها الرواية الصحيحة التي يجب اعتمادها بعد اليوم في تاريخ الكنيسة ، كما سنبينه في حينه .

وقبل ان ننتقل الى درس الدلائل التي ترجح نسبة هذا الميمر الى القديس كيرلس الاورشليمي علينا ان نبسط الاعتراضات التي قد تقف في طريقه ، وان نبين ما في هذه الاعتراضات من وجوه الضعف ، وانها لا تنطبق على ميمرنا .

البحث الثاني

الاعتراضات

نبسط في هذا البحث الاعتراضات التي قد تقوم ضد رواية ميمرنا بخصوص رؤيا قسطنطين وعلاقة والدته هيلانة باكتشاف القبر والصليب . وهي تاسس الاعتراضات الموجهة ضد الاساطير السريانية التي تسرد روايتها والصعوبات الراقدة في سبيلها ، اثبتت انها لا تنطبق على ميمرنا ، وان انطبقت لا تنفي نسبته الى القديس كيرلس .

١ رؤيا قسطنطين

لم نتقدم بعد بميمرنا الى محاكم النقدة ، انما نتصورهم ، منذ الآن ، يشزرونه بعين الحذر والريب ، شأنهم في كل اكتشاف جديد لاثر قديم ، لاسيما اذا اتاهم من الشرق . وقد بالغوا في ذلك حتى امسوا يشكون في اوثق الوثائق ، وينقضون دعائم التاريخ الكنسي القديم القائمة على تآليف اوسابيوس وثيودوريطوس وسقراط وسوزومين وغيرهم ، دون ان يكون لهم ما يعوضوننا به منها ، بل نراهم يملأون فراغها بالتخمينات والتأويلات ، كمن يترك ما في يده سعياً وراء الخيال . والغريب انهم عند غرضهم يستخدمون الوثائق التي نبذوها بالامس اداةً لهدم غيرها . ولعلّ ما يحملهم على المغالاة في النقد حُبّ الظهور بمظهر الحكيم الرصين الضليع ، الذي لا يجوز عليه ما جاز على الساذج او المبتدئ . وكأني بهم ذلك الجرّاح ، الذي اذا كُلّف بترّ عضو فاسد ، ارتأى بتر عدة اعضاء ، بحجة انها غير صحيحة ، ولا يزال يعمل مبضعه في المريض حتى يتركه

جثة. لا تصلح سوى للتشريح . فلنتدارك مباضعهم في ميمرنا ، عسانا نتقيها او نخفف من حدتها . ولنحذر محذرهم الا في دائرة التعقل والاعتدال.

اهم ما يخالهم موجهين النقد اليه رواية الميمر في رؤيا قسطنطين الملك وعلاقة والدته باكتشاف القبر المقدس والصليب . وحجتهم ان هذه الرواية مستندة الى الاساطير السريانية القديمة ، التي نشرها المستشرق نستله ، والحاوية للاشاعات الملفقة ، التي راجت في القرن الرابع في عالم النصرانية ، خاصة في الشرق ، حول هذا الاكتشاف.

واليك مختصر رواية ميمرنا في رؤيا قسطنطين وردت في الصفحات ٢٢٩—٢٣٢ من مخطوطة بكركي التي نعتمد عليها :

« كان الملك قسطنطين ابنًا لوالدين مسيحيين ، متسلمًا من الملوك الرومان الاصليين. انما لم يكن في شبوبيته قد تنصر بعد ولا عارفًا بعلامة الصليب . لان الملكين ديوقليانوس ومكسيميانوس كانا قد بسطا عبادة الاوثان في كل مكان ، ولم يكن بعد من كنائس قائمة ولا صلبان ظاهرة . وحدث انه خرج يومًا لقتال الفرس وعسكر في تل رامح ، فوجدهم قد تحالفوا مع سبع امم وحشدوا عليه جيشًا هائلًا وجاؤوا بآلة يخفرون بها السراديب والمنزر ، وصمموا على الفتك به واجتياز حدود الكورة الرومانية واحتلال انطاكية. وفي ذات ليلة ، وقد اشتد به القلق ولازمه الارق للتفاوت بين قوات العدو وقواته ، رأى وهو يتفرس في السماء صليبًا من نور وحوله كتابة « بهذه العلامة تغلب جميع اعدائك » . وفي الغد نهض باكرًا واستفهم من الكهان والعرّاف لمن هذه العلامة ، فاجابه بعضهم انها لداريون اله الحرب وآخرون انها للبطل هرقل . وان غلامًا يسى اوسيكيتوس اقترب منه سرًا خوفًا من العارد ، لان الحادث كان في زمن الطرد ، وأكد له ان العلامة للسيد المسيح . فنذر قسطنطين ، ان هو نال الغلبة بها ، آمن بالله آبائه . وللوقت خلق صليبًا من ذهب في رأس رمحه وامر ان يتقدمه ، فحاز نصرًا مبينًا على الاعداء . وفيما هو يقتفي أثرهم شاهد جمعًا كبيرًا في السماء يطاردونهم بسيوف مسلولة في ايديهم . »

وهاك الآن ملخص ما قد يُعترض به على هذه الرواية نأخذه عن مقالة للاب لكلير ، نشرها في قاموس الآثار والطقوس المسيحية تحت اسم قسطنطين[1] .

هذه الرواية مخالفة للتاريخ ، الذي ينبئنا ان قسطنطين ، حين كان ملكًا

1) *Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie, publié par.* dom Ferd. Cabrol et dom Henri Leclerq. Paris, 1914. Tome III. 2° partie, col. 2622-2695 — راجع عن الرؤيا وحدها ع ٢٦٦٣-٢٦٦٧ من هذا الجزء.

على غالية وبريطانية[1] ، زحف على مناوئه مكسنس عامل رومية . ولما صار على جسر ميلفيوس من ضواحي رومية رأى حلماً أوعز اليه فيه ان يرسم علامة الصليب على تروسه . ففعل وانتصر على مكسنس وطرحه في نهر التيبر في ٢٩ تشرين الاول سنة ٣١٢م . وفي اليوم التالي دخل رومية وضم ايطالية الى مملكته . هذا ما كتبه لاكتنس استاذ كريسبوس بكر قسطنطين.

اما اوسابيوس مؤرخه ، فروى انه في اثناء زحفه من غالية الى رومية شاهد ، ساعة الغروب ، هو وجيشه ، صليباً من نور فوق قرص الشمس مع كتابة « بهذه العلامة تنتصر » . وفي الليل ظهر له السيد المسيح في الحلم مع العلامة التي رآها في النهار وأمره ان يصنع مثلها ويحملها في حروبه فينال الغلبة. ولما استيقظ امر الصياغ فصنعوا له صليباً من ذهب وحجارة كريمة ، ورسمه ايضاً على تروس جنوده.

فالرؤيا اذاً ظهرت لقسطنطين في اثناء زحفه على مكسنس لا في محاربته الفرس ، وعلى جسر ميلفيوس ، وليس في تل رامح . ولا يُعقل ان يرتكب القديس كيرلس مثل هذا الخطأ وهو معاصر لقسطنطين . فالمير اذاً ليس له .

زد على ذلك ان والدي قسطنطين لم يكونا مسيحيين ، كما يدّعي صاحب المير . فوالده قسطنس كلوروس عاش وثنياً ومات وثنياً ووالدته هيلانة لم تتنصر الا بعد ان تسنّم ابنها عرش رومية سنة ٣١٢ م ، ولا يُعرف تاريخ عمادها . وهل يُعقل ان يكون والداه مسيحيَّين ويظلّ هو جاهلاً علامة الصليب ؟ فضلاً عن انه لم يتنصر الا قبيل وفاته سنة ٣٣٧ من اسقف نيقوميدية الاريوسي.

فنجيب اولاً ان لاكتنس انفرد وحده بذكر جسر ميلفيوس على التيبر ، وروايته ، على رأي يوحنا روسي الاثري الشهير وغيره يصعب تصديقها[2] . وهو لم يصرّح لنا من اي مصدر استقاها . امن الملك نفسه ام من حاشيته . وقد راجت في عهده اشاعات شتى عن رؤى عديدة كانت تظهر فيها الالهة لقسطنطين قبل كل معركة يخوض غمارها[3] . وبينما لاكتنس يقتصر على ذكر حلم تراءى

١) فرنسة وانكلترة ٢) كابرول ع ٢٦٦٧ حاشية ٢
٣) كابرول ع ٢٦٦٦

لقسطنطين في المنام رؤى اوسابيوس مؤرخه وامين سره يتكلم عن رؤيا ظهر فيها الصليب قبيل الغروب لقسطنطين ولكل جيشه ، وعن حلم ظهر فيه المسيح له مع علامة الصليب وامره ان يتخذها له شارة . وهو لم يعين مكان الرؤيا بل يُفهم من سياق كلامه انها كانت في بدء زحفه على روميه اي في غالية ، او على حدود ايطالية الشمالية . وهو يخلط ايضاً بين الشارة التي اتخذها قسطنطين من حرفي اسم المسيح ☧ او ☩ ورسمها على رايته *labarum* وعلى تروس جنوده ، وبين علامة الصليب نفسها . ويدّعي ان الملك اسرّ له بهذه الرؤيا في آخر حياته . فالرؤيا حدثت في سنة ٣١٢ ، وكتبها اوسابيوس بعد موت قسطنطين سنة ٣٣٧ . فكيف بقيت سراً طيلة هذه المدة وقد شاهدها الجيش كله[1] ؟

كل هذه المناقضات حملت العلماء على الشكّ في امر هذه الرؤيا والوقوف موقف الحذر في تصديق تفاصيلها ، مع ان راويَيها معاصران لقسطنطين واحدهما امين سره والمرجع الاوثق لكل ما يختصّ به وبعصره . فهل يجوز نقض رواية القديس كيرلس استناداً الى مصدر مشكوك فيه ومتناقض ؟

ثانياً الرؤيا حدثت سنة ٣١٢ اي قبل ولادة القديس كيرلس بسنة ، اذا كانت ولادته سنة ٣١٣ ، وبثلاث اذا كانت سنة ٣١٥ . فهو غير معاصر لها . فضلاً عن ان الميمر يصف مصرع الملك يوليانوس الجاحد سنة ٣٦٣ . فهو لم يُلقَ قبل هذا التاريخ . وسنورد لك ما يرجح القاءه في آخر حياة القديس كيرلس . فان قدّرنا ان القديس اخطأ في تعيين مكان الرؤيا فلا حرج عليه ، فقد رواها بعد حدوثها بخمسين او بخمس وستين سنة ونيف . ولعله استند الى رواية مغلوطة في هذه النقطة او تأثر من ذكر الحرب التي نشبت ما بين النهرين بين الرومان والفرس ودامت سنة كاملة[2] . وقد اعلن هو نفسه في الميمر انه غير شاهد عيان بل انه يرويها « عن الآباء المعلمين الذين كتبوها »[3] . فخطأه

١) هذه الملاحظة للاب لكلير ذاته . كايرول ع ٢٦٦٥ .
٢) راجع معجم اللاهوت للاب فاكان مج ٣ ع ٢٥٣٦
٣) صفحة ٢٢٢ من مخطوطة بكركي

هذا ، اذا كان هناك خطأ لا ينفي نسبة الميمر اليه.

ثالثاً : اما ادعاء المعترضين ان والدَي قسطنطين كانا وثنيّين ففيه نظر . لان والده قسطنس ، ان لم يتظاهر بالنصرانيّة ، فقد تظاهر بالعطف على المسيحيين وبعبادة « الاله الواحد » ، اي اله المسيحيين . وكان يلجأ اليه في كل محنة ومهمة وينسب اليه كل توفيق ونجاح. ويستنكر اضطهاد رئيسيه الامبراطورين ديوقلسيانوس ومكسيميانوس للمسيحيّين واتكالهم على كثرة الآلهة[1] . اما هيلانة فلا نعرف تاريخ عمادها فلا يمكننا الجزم بامرها . ولعل نصرانيّتها ونصرانيّة زوجها لم تبلغا النضج في عهد حداثة ولدهما . والملوك لا يتعاطون تربية اولادهم رأساً . وقد طلقها قسطنس سنة ٢٩٣ ، حين لم يكن ابنها قد تجاوز الثالث عشرة ، اذا كان من مواليد سنة ٢٨٠ ؛ لانه رأى ان لقب « قيصر » الذي مُنحه تلك السنة لا يتفق واصلها الوضيع[2] . اما ولدها فقد قضى حداثته وشبابه بعيداً عنها ، في جيشي ديوقلسيانوس وجاليريوس . ولم يعد الى وطنه الا قبيل وفاة والده ، فبايعه الجيش في ٢٥ تموز سنة ٣٠٦ خلفاً له على غالية وبريطانية . والوثنيّة كانت منتشرة في كل الامبراطورية الرومانية ، والنصرانية ضعيفة مضطهدة.

رابعاً : اذا تركنا تعيين المكان جانباً ، وجدنا رواية ميمرنا عن رؤيا قسطنطين اصح من غيرها واقرب الى التصديق . فالميمر يتجنّب الصعوبات التي تعترض تلك الروايات والمناقضات التي تسقط فيها ، بل انه يوفق بينها . فقسطنطين ، حسب ميمرنا ، قد رأى علامة الصليب بينما كان متكئاً على فراشه متفرساً في السماء يتفكّر في المعركة ومصيره . وفي الغد شاهد ، وهو يتعقب العدو ، ملائكة في السماء شاهرين السيوف يطاردونه . والميمر يتفق مع المؤرخين في ان الملك كان عندئذٍ غير متنصر ، لا يعرف علامة الصليب ، وان الرؤيا حدثت في بدء عهده بالملك وفي زمان الطرد ، اي الاضطهادات ، وانه شاهدها

---

١) كابرول مج ٣ ع ٣٦٦٣ ، وهو يستند في ذلك الى قول اوسابيوس نفسه في ترجمته لقسطنطين مج ١ فصل ٢٧ رقم ٣ ٢) كابرول ع ٣٦٢٤ و٣٦٢٥

ليلة المعركة الفاصلة ، وصاغ على اثرها صليباً من ذهب مرصعاً بالجارة الكريمة جعله قدام الجيش فانتصر ، والغى الاضطهاد الذي كان ديوقليسيانوس قد شهره على المسيحيين ، وبنى للصليب كنيسة القيامة في اورشليم وحضر تكريسها اساقفة كثيرون ، وعيّن له عيداً رسمياً كان يدوم عدة ايام . وغير ذلك مما سوف تطالعه في الميمر ونشير اليه في تعليقنا .

٨ً الاساطير السريانيّ

وربّ معترض يقول : « لو سلّمنا ان القديس كيرلس لم يكن معاصراً لرؤيا قسطنطين في سنة ٣١٢ ، فقد كان معاصراً لاكتشاف قبر المسيح حوالي سنة ٣٢٦ ، وبالاحرى شاهداً لاكتشاف الصليب المقدس بين سنتي ٣٣٥ و٣٤٧م . ولما كانت رواية الميمر لا تختلف في اغلاطها التاريخية عن رواية الاساطير السريانيّة الملفقة ، فالميمر ليس له »

نحن لا ننكر وجاهة هذا الاعتراض ، بل نعدّه اكبر حاجز يقف بين الميمر وصحة نسبته الى القديس كيرلس . والرد عليه لا بدّ لنا من التمهيد بكلمة نقولها في هذه الاساطير وفي اهم ما يوجه الى رواياتها من الانتقاد ، ليتسنى لنا مقارنة ميمرنا بها ، ومعرفة درجة نسبته اليها ، فنحكم في درجة نسبته الى القديس كيرلس . ولا ريب عندنا ان القراء يسلّمون بضرورة هذا التمهيد ، فضلاً عن فائدته . لان الاساطير المذكورة من اقدم ما لدينا عن اكتشاف القبر والصليب ، وهي مبنية على الاشاعات التي راجت في القرن الرابع حول هذا الاكتشاف . فنقدها يفرز لنا غثّها من سمينها .

وقد رأينا ان نزاجمها بنفسنا لنلخص للقراء رواياتها ، وان نقتطف المعلومات عنها من مقدمة ناشرها ، والاعتراضات عليها من مقالات الاب لكلير المذكور اعلاه . المنشورة في « معجم الآثار المسيحيّة » الذي يشرف عليه مع الاب كابرول[1]

---

١) كابرول مج ٣ : ع ٢١٢١–٢١٢٩ عند كلمة *Croix* اي الصليب ومج ٦ : ع ٢١٢٢–٢١٢١ عند كلمة *Hélène* اي هيلانة

في سنة ١٨٧٤ عثر السيد روبرت هونتينجتون (Huntington) في مدينة حلب على مخطوط سرياني قديم ، كتب بالحرف الاسطرنجلي ، يحتوي قصص قديسين ، بينها قصتان تروبان حكاية اكتشاف القبر والصليب . فاردعها المتحف البريطاني بلندرة (*Britisb Museum*) وعني المستشرق ابرهارد نسلله بنشرها والتعليق عليها ، وبالحاق قصة ثالثة بها ، نقلاً عن نسخة قديمة جداً محفوظة في مكتبة باريس الوطنية[1]

ولنبدأ بخلاصة اقدم هذه الاساطير والمخطوطات ، اي مخطوطة مكتبة باريس الوطنية الموضوعة تحت رقم ٢٣٤ ، التي ترتقي نسختها ، حسب رأي العلماء ، الى اواخر القرن الخامس او اوائل السادس[2] . وهي تروي قصة اكتشاف الصليب لاول مرة بسعي القديسة بطرسية هيلانة زوجة كلوديوس قيصر . هذه قصدت الى اورشليم في عهد يعقوب الرسول وأمرت اليهود ان يأتوها بصليب السيد المسيح ، فجاؤوها بثلاثة صلبان لم تعرف ايها الحقيقي . وفي هذه الاثناء ماتت ابنتها فوضعت عليها الصليبين الاول والثاني بدون جدوى ، ولما وضعت الثالث قامت الفتاة من الموت . فعرفت والدتها انه صليب المسيح وبنت له كنيسة فخمة ، فضلاً عن كنيسة اخرى شيدتها على الجلجلة .

اما مخطوطة المتحف البريطاني[3] رقم ١٤٦٤٤ من ملحق فهرس مخطوطاته السريانية ، فرجعها العارفون الى اوائل القرن السادس . وهي تنسب اكتشاف الصليب الى القديسة هيلانة والدة قسطنطين وتعطيها الدور الذي اعطته الاسطورة السابقة الى القديسة بطرسية . فقد جاءت الى اورشليم في ٢٨ ايار سنة ٣٥١[4] فوجدتها خربة ، يتزل في جوارها نحو ثلاثة آلاف يهودي . ولما

١) Eberhard Nestle : *De Sancta Cruce*. Berlin. H. Renthers Verlagsbuchandlung. 1880.

٢) راجع في تاريخ هذه النسخ معجم كابرول مج ٣ ع ٣١٣٣ في الحاشية ١٠

٣) راجعها في نسله صفحة ٢٥-٢٦

٤) اذا لم يكن هذا الرقم خطأ من الناسخ فقد خلط واضع الاسطورة بين تاريخ اكتشاف القبر والصليب وتاريخ العجوبة ظهوره لامعاً في سماء اورشليم بين القبر والجلجلة ، التي كتب فيها القديس كيرلس رسالته الى قسطنس سنة ٣٥١

سألتهم عن مكان الصليب قدموا لهـا الفاً من علمائهم . فوبختهم على قساوة قلوبهم وصمّ آذانهم عن تعاليم المسيح ، ثم امرتهم ان ينتخبوا من يجيبها على بعض اسئلة تطرحها عليهم . فاختاروا منهم خمسمائة ، بينهم يهوذا ، الذي اسرّ الى رفقائه ان والده سمعان حدّثه عن جدّه زكي ان المسيح صُلب على القرقفة مُنْعَطِفاً . ولما ضايقت الملكة اليهود في السؤال وتوعدتهم بالتعذيب ، ان تمنعوا عن اجابة مطلوبها ، قدموا لها يهوذا المذكور . هذا انكر في بدء الامر معرفته بمكان الصليب ، انما بعد ان طرحته في بئر لا ماء فيها ومنعت عنه الشرب والطعام وعدها في اليوم السابع ان يبوح بما لديه . فقصد بجمهور من المسيحيّين الى القرقفة ، حيث صلّى قائلاً : اذا كان الرب يرغب في ان يملك ابن مريم على الارض ، واذا كان ابن مريم المسيح المنتظر ، فلتصعد من هذا المكان رائحة بخور . فصعدت . وحفر نحو عشرين ذراعاً ، بمعاونة الحاضرين ، فوجد ثلاثة صلبان حملها الى الملكة ، التي كانت تنتظر في المدينة . وفي الساعة التاسعة مرّت من هناك جنازة شاب فوضع يهوذا عليه الصليبين الاولين بدون فائدة ، ولما وضع الثالث قام حيّاً . وكان الشيطان في احد الحضور فصرخ متهدّداً « اني غلبتُ العالم بيهوذا الاول ، وغلبتُ بك الآن يا يهوذا الثاني . فانا ذاهبٌ الى ملك آخر يقتصّ منك »[1] . فانتهرهُ يهوذا واخرجه من الرجل . واخذت الملكة الصليب ، ورصّعته بالجواهر ، وحفظته في ذخيرة ثمينة اودعتها كنيسة عظيمة اقامتها له على القرقفة . اما يهوذا فعمّده اسقف اورشليم . ولما توفي هذا الاسقف اوعزت الملكة الى اوسابيوس اسقف رومية ، الذي كان حاضراً ، ان يسقّف يهوذا مكانه ، فرسمه واطلقت الملكة عليه اسم قرياقوس . ثم طلبت اليه ان يبحث عن مسامير المسيح . فتوجه يهوذا - قرياقوس الى المكان نفسه ، وشاهد هناك نوراً ساطعاً كالشمس والمسامير تلمع كالذهب . فحملها الى الملكة التي صاغتها لجاماً لفرس ابنها قسطنطين ليحرسه في ذهابه وايابه وينصره في الحروب . ووقفت الملكة اموالاً طائلة على

---

١) اشارة الى استشهاد يهوذا المذكور في عهد ادريانوس قيصر .

المساكين والكنائس وجعلت قرياقوس قيماً عليها ، وعيّنت لاكتشاف الصليب عيداً سنوياً.

ويختم المخطوط القصة بقوله : « هذه قصة ظهور الصليب للمرة الثانية » ، مشيراً بذلك الى ظهوره لاول مرة على يد بطرسية الملكة القديسة ، التي حلت كما ترى ، هيلانة الملكة القديسة محلها في القصة الثانية.

اما الاسطورة الثالثة فواردة في المخطوطة رقم ١٢١٧٤ من ملحق فهرس المخطوطات السريانية في المتحف البريطاني[1] . ترتقي نسختها الى القرن الثاني عشر ، وتجمع بين اسطورتي الملكتين بطرسية وهيلانة وتلحمها ببعضها. فتدعي ان الملكة بطرسية استصدرت ، عند عودتها الى رومية ، امراً من زوجها كلوديوس قيصر باخراج اليهود منها . بيد ان الملك طرايانوس الاتي اضطهد المسيحيين وعزز اليهود . فسعوا في حبس شمعون بن قيلوفا ، خليفة يعقوب الرسول على اسقفية اورشليم ، واستولوا على الصليب وطمروه . فبقي مطموراً مدة ولاية اساقفة اورشليم الاربعة عشر الاولين.

وفي شهر كانون الثاني اجتمع البرابرة على نهر الدانوب[2] ليعبروه ويخربوا مملكة الرومانيين . فتوجه قسطنطين لصدّهم . وفي الليلة التي كانوا ينوون في غدائها ان يعبروا النهر رأى في السماء صليباً من نور يحمله ملاك من نور . وعليه كتابة : « بهذه العلامة تنتصر »

وفي الغد امر ان يصنعوا له مثل هذه العلامة وتواقع مع البرابرة فدحرهم . ثم عرف من احبار المسيحيين ، الذين كانوا يُدعون في ذاك العهد نصارى ، ان

---

١) نشرها نستله في الصفحات ٧-١١ من كتابه ، والاب بدجان الكلداني في الجزء الاول من مجموعة قصص الشهداء صفحة ٢٢٦-٢٤٣

٢) نهر يصبّ في ممالك اوربة الوسطى . وقد اصلح بدجان اسمه باسم المُخنّص اي التيس ، مع ان الاسمين لا يتشابهان في الكتابة. وهناك اساطير لاتينية تذكر ايضاً ان روما قسطنطين صارت على نهر الدانوب في السنة السادسة لملكه . راجع مخطوطة باريس في مجموعة الوثائق عن اكتشاف الصليب لهولدر A. Holder, *Inventio Sanctæ Crucis*. Paris. 1889. P. 1 Secundum cod. Paris. N° 2761.

هذه العلامة للمسيح ، فاستدعى اوسابيوس اسقف رومية وتلقن منه مبادئ الديانة المسيحيَّة واعتمد من يده هو واهل بلاطه . واوفد والدته هيلانة الى اورشليم برفقة الاسقف اوسابيوس المذكور لتبحث عن الصليب ، وتقيم له كنيسة لائقة به . فقصدت اليها في شهر آب واستدعت علماء اليهود . فتقدم الف اختاروا منهم ثلاثين ، بينهم يهوذا الذي اسرّ الى رفقائه بما يعلمه عن مكان الصليب نقلًا عن والده ، الذي عرف من الكاهن زكي ، نيقوديموس الانجيل ، انه مطمور في الجلجلة ، لا في القرقفة . . . الى آخر ما جاء في الاسطورة الثانية عن كيفية اكتشاف القبر والصليب والمسامير وبناء الكنيستين ، وتعميد اوسابيوس ليهوذا وتسقيفه على اورشليم ، مما لا حاجة الى تكراره ، لانه مطابق الاسطورة التي سبقتها .

(للبحث صلة)